

المحاضرة 7 تابع الفارابي

الموضوع: التوفيق بين رأيي الحكيمين- الأسباب و الإبعاد والمعوقات.

عند الحديث عن فلسفة الجمع بين الحكيمين، او عن فلسفة الجمع، فهذا لا يعني بالضرورة انحصار هذا التوجه الفكري عند ابو نصر الفارابي فقط، إنما الجمع بمثابة تقليد فكري او طريق منهجي شاع اللجوء إليه في تاريخ الفكر الفلسفي عند اليونان، وكذلك عند علماء الفقه الإسلامي، الذين كانوا يسعون من خلال جمعهم بين المواقف المتعارضة البحث عن مكامن التوافق الفقهي وكذلك لتجنب إقصاء إيّ موقف من ميدان الحقيقة والصواب. او إسقاط القدرة التشريعية لأي رأي لفتاعتهم بنسقية كل رأي.

ومنه يمكن القول بأن ابو نصر الفارابي لم يأتي ببدعة فكرية غريبة من حيث المبدأ او المقصد والمنهج، فقط هو يختلف عن الفقهاء في جمعه بين الحكيمين او بين الشريعة والحكمة، حيث لم يحافظ على تعارض الحكيمين واختلافهما مثلما تبين ذلك كتابتهما، بل عمل على تنفيذ اهل زمانه ليجمع بين الحكيمين انطلاقاً من نصّ فكريّ خارج نصوص الحكيمين، إذ استعان بنص ثالث ليجمع -ليوفق- بين الحكيمين وللتقريب بين نصين متعارضين ليبيّن اشتراكهما في غاية واحدة.

لقد جمع الفارابي بين افلاطون وارسطو انطلاقاً من كتاب يعتبر في تاريخ الفلسفة كتاباً منحولاً، لكن إيمانه الجازم بوحدة الحقيقة وكذلك انشغال فلاسفة عصره بإبراز التعارض بين الحكيمين، دفعه إلى البحث عن سند نظري واحد لقطبي الحكمة في عصره وقد أسعفه كتاب اثولوجيا بتحقيق مقاصده الفلسفية (عابد الجابري، نحن والتراث، 81، 82) حيث يقول في ذلك "فإني رأيت أكثر اهل زماننا قد تخاصموا وتنازعوا وادعوا ان بين الحكيمين المقدميين المبرزين اختلافاً ..أردت في مقالتي هذه أن اشرع في الجمع بين رأييهما والإبانة عمّا يدا عليه فحوى قوليهما ليظهر الاتفاق بين ما كان يعتقدانه ويزول الشك والارتياب في قلوب الناظرين في كتبهما، وأبين مواضع

الظنون ومداخل الشكوك في مقالاتهما. لأن ذلك من أهم ما يقصد بيانه وانفع

ما يراد شرحه وإيضاحه" (كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين دار المشرق، 1990، ص79) .

لكن تجدر الإشارة إلى هذا الجمع بين افلاطون وارسطو ليس جديداً على الثقافة الفلسفية الإسلامية، إنما هو مذهب من المذاهب التي عرفها التقليد الفلسفي الاسكندراني، حيث يقول سمبيليوس في كتاب المقولات لأرسطو "إذا ظهر الخلاف بين ارسطو طاليس وافلاطون، فالقاعدة أن لا نقف عند ظاهر المعنى ولا نعتقد بوجود الخلاف حقيقة بين ارسطو وأفلاطون، بل ينبغي عليك أن تستقصي معنهما، فتجدهما موافقين لا محال" (دافيد سانتلانا، المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي، تحقيق وتقديم محمد جلال شرف، دار النهضة العربية 1981، ص88، 89)

ومنه يمكن القول ان مسألة التوفيق بين الحكيمين بمثابة اشكالية فلسفية فرضها السياق الفكري في عصره، لما لها من تداعيات على وحدة الحقيقة وكذلك قدرة الفلاسفة والفلسفة على تيسير الطريق للإنسان عموماً والمسلم بالخصوص من بلوغ رؤية واضحة للوجود، وكذلك في الفصل في القيمة الحضارية والعلمية للموروث الفلسفي الوافد وضرورة استثماره بالرغم من تنوعه لغرض للتأسيس لأطروحات فلسفية شاملة للعالم.

ينطلق الفارابي في الجمع بين الحكيمين من قاعدة يرى فيها ان الحكيمين إمامان للفلسفة، وبغض النظر عن القراءة التي تحكم بالفشل لهذا الجمع بحجة اعتماده على نص فلسفي ثالث وغريب عن فلسفة الحكيمين، وفي هذا دلالة على جهله الكلي بروح فلسفة كل من الحكيمين، يمكن ان نقرأ هذا الجمع من زاوية أخرى قادرة على إبراز مقاصده وإبعاده الفكرية ، فقد كان أمام اشكالية محيرة تتعلق بوحدة الحقيقة، حيث فسّر التعارض بين الحكيمين بان الفلسفة تؤدي إلى القول بتعدد الحقيقة وهذا ما لا يقبل به العقل، خاصة في المسائل الالهية وهي مسائل مركزية في الفكر البشري، كونها تعد مرجعية و أرضية فكرية للتأسيس للرؤية إلى الوجود ومنه الفصل في

مختلف الإشكاليات الفلسفية الحاسمة، في الأخلاق والسياسة والدين والمعرفة.

كما ان هذا المبحث هو بمثابة نقطة مركزية في الأمة المسلمة التي تقوم على عقيدة التوحيد و الإيمان بالخلق من العدم وعلم الله، وبذلك لا يقبل ان يؤدي النظر الفلسفي إلى الاختلاف في هذه المسائل، وان كان مقبولا في المسائل المدنية والاجتماعية . لكن الفارابي كان يدرك بوجود تعارض ظاهر بين افلاطون وارسطو في المسائل الإلهية وهو ما لا يمكن السكوت عنه، والتأكيد على وجود توافق جوهري بين الحكيمين فيها، ومنه لجأ إلى تأويل النص اليوناني باعتماد منظور ثالث، لدرأ التعارض.

الفلسفة التوفيقية للفارابي ساعدته في التأسيس لأطروحة فلسفية خاصة به في مختلف المباحث الفلسفية، حيث نجده في كتابه المدينة الفاضلة، حيث يؤكد فيه أن الحياة المدنية والاجتماعية طبيعة في البشر، فهم يميلون رغم الاختلاف الموجود بينهم في القدرات إلى العيش تحت سقف سياسي معين، يمكن ان يحقق لهم الاستقرار والاطمئنان على حقوقهم وحياتهم، ويجنبهم الظلم وهذا يقتضي وجود القانون والحاكم العادل-العالم الفيلسوف- السوي أخلاقيا، وهو طرح نجده عند افلاطون وارسطو، إذ يؤكد افلاطون أن الحكيم هو المؤهل للحكم في جمهوريته لقدرته على تحقيق العدل في مجتمع متفاوت القدرات، كما أن ارسطو يؤكد ضرورة العدل -فضيلة الفضائل- وهي مسؤولية الحاكم العادل العالم، يكون للفيلسوف دور غير مباشر في تحقيق هذا الحكم وهو ما يسميه بالسلطة الثقافية- التوجيه- فهو لم يقصي الفيلسوف بل حدّد له مهامه كمعارض و رقيب ثقافي فكري لشؤون الحكم.

وقد تناول الفارابي المسائل الفلسفية التي يظهر فيها التعارض مبينا انه مجرد تعارض ظاهر، يمكن تجاوزه عند النظر في مقولات الحكيمين:

فاذا كان افلاطون يقول بثبات القيم ومثالية مصدرها وارسطو يرى بعدم ثباتها وارتباطها بالعادات البشرية ومنه نسبيتها، فهما يتفقان في ان الأخلاق خاصة

بشرية، وان ثباتها عند افلاطون لا يلزم عنه القول بتغيرها وان ارسطو ان كان يقول بارتباطها بالعادات فهو لا يقول بتغيرها الكلّي، وفيما يخص وجود عالم المثل فان كان افلاطون يقول بوجوده وارسطو يرفض ذلك، لكن الفارابي من خلال كتاب الربوبية يرى ان ارسطو قد تراجع عن قوله بنفي عالم المثل من خلال قوله بقدم الصور عن المادة.

أمّا فيما يخص مسألة قدم العالم عند ارسطو من حدوثه عند افلاطون، فقد أنكر الفارابي قول ارسطو بقدم العالم في قوله " قد توجد قضية واحدة بعينها يمكن ان يؤتى على كلا طرفيها بقياس من مقدمات ذاتة، مثال ذلك: هذا العالم قديم أم ليس بقديم)) وهذا عبارة عن مثال قدمه ارسطو فقط وليس موقفه هو حول حقيقة العالم. واذا كان قد كتب في كتابه السماء والعالم ان العالم ليس له بدء زمني: الأمر الذي جعل البعض يفهم بأنه يقصد أن العالم قديم، لكن المقصود هو أن حدوث العالم فيه حدث الزمان في آن واحد فالزمان حركة حادثة عن حركة الفلك ومنه العالم إبداع الهي دفعة واحدة بلا زمان وعن حركته حدث الزمن، ومنه تصبح الهولوية إبداع من الله من العدم ومنها اوجد الموجودات على صورها. فالقدم الذي يقصد ارسطو لا يلزم عنه نفي حدوث العالم و وجود الصانع الذي أبدعه من العدم، وهو أمر تجلى في قوله بالمحرك الذي لا يتحرك وهو مصدر الحركة. بهذا يحاول الفارابي ان يقدم صورة لفلسفة الحكيمين لا تتعارض مع التصور الإسلامي للخلق من عدم، وهو بهذا يسعى إلى إيجاد مكانة محترمة للحكيم بالخصوص ارسطو الذي استشكلت أفكاره ومقولاته عند المسلمين، عكس افلاطون الذي كانت أفكاره مستساغة مقبولة. كذلك فيما يتعلق بمبحث المعرفة وعلاقتها بالذات العارفة والقدرات المعرفية عند الإنسان. فقد زعم الفارابي ان ارسطو في كتابه البرهان يرى أن كل تعلم إنما يكون عن معرفة سابقة بالعلم الذي يطلبه المرء وإلا فكيف يعرف او يوقن ان علم ما كان يطلب، فالعقل في كتاب البرهان يعني قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين لا عن قياس ولا عن فكر بل بالفطرة والطبع كما انه يزعم ا افلاطون لا يلغي دور الحواس في تفعيل عملية التعلم والتذكّر.

يمكن القول أن جمع الفارابي بين افلاطون وارسطو طريق اعتمده لأجل التأكيد على ان الفلسفة لا تؤدي إلى الخلاف ولا تتسبب في تشويش العقول والتشكيك في الفضائل والمعتقد، وان ما يصل إليه النظر الفلسفي وان بدا فيه التعارض فهو تعارض ظاهري، يمكن تجاوزه عن مراجعة الفهوم التي تشكلت عند قراءة النصوص الفلسفية او المواقف الفلسفية للحكيمين، ما انه تأكيد ان امكانية التوافق في الفلسفة متاحة اذا توفرت الإرادة وتخلص المشتغل بالفلسفة من أفكاره المسبقة عن الفلسفة او الفلاسفة، وإغراضه الدنوية او المذهبية التي يريد من خلالها الانتصار لذاته وأفكاره ضنا منه انه قد امتلك الحقيقة والفلسفة الحقّة، لكنه في حقيقة الأمر بهذا الموقف يكون ابعد بكثير عن مطلب الحق وفضيلة الفلسفة التي تقوم على التسامح وقبول أفكار الغير وان كان يخالفنا في الملة، والابتعاد عن رفض الثقافة الوافدة تحت حجة الاختلاف الذي تحمله او مخالفتها في ظاهرها للدين او الثقافة المحلية. انه يسعى من خلال جمعه بين الحكيمين التأكيد على الوحدة كضرورة معرفية واجتماعية وتجاوز الفروقات، التي تنتج بسبب اختلاف الظروف الثقافية والاجتماعية ومنه التأسيس لمدينة فاضلة تقوم على الفضيلة والعقل البشري الذي هو أداة للمعرفة وتدبير السياسة وقانونها وغايتها المطلقة(محمد المصباحي، من المعرفة الى

العقل، دار الطليعة، بيروت ط 1 ص33)